دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	حول التطور اللغوي التاريخي
المصدر:	مجلة الفكر العربي المعاصر - مركز الإنماء القومي - لبنان
المؤلف الرئيسي:	علوية، نعيم
المجلد/العدد:	ع 30,31
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1984
الشهر:	صيف
الصفحات:	101 - 112
رقم MD:	433065
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	معاني الألفاظ ، علوم اللغة ، اللسانيات ، الفكر اللغوي ، اللغة الفصحى ، الدلالات اللغوية ، الألفاظ اللغوية ، الإعراب ، النحو ، النحاة ، المعاجم اللغوية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/433065

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

حول «التطور اللغوي التاريخي»

نعيم علوية

هذا العمل هو عرض لكتاب د . ابراهيم السامرائي « التطور اللغوي التاريخي » وفيه مناقشة لبعض المبادىء التي استند اليها الكاتب ولعدد من تطبيقاته لها انطلاقا من مفهومنا في علم الدلالة وعلم الاصوات اللذين يبينان أنموذجاً في تطور الدلالة والصوت الخاصين بلفظ من الألفاظ .

« كلمة في التطور اللغوي »

التطور اللغوي يعرض لكل اللغات كما يعرض للألسن الدارجة ، ويرجع قرب العامية من الفصحى الى « شيوع التعليم » . والعربية الفصحى التي تؤلف « وحدة طبيعية اجتماعية حضارية » تختلف من قطر الى آخر . وقد استطاعت ان تواجه المد الحضاري الزاخر فتنتقل من لغة حضارة الى اخرى ، وقد يفرض على العرب ان يأخذوا الجديد والاعجمي ويتدبروا امره على نهج الاوائل رضي « اهل الحفاظ » ام لم يرضوا ، فانت تجد الجديد يندس في العربية المعاصرة ويصير من لوازمها مثل « الاكثرية الساحقة » المترجمة حرفياً عن الفرنسية (la majorité écrasante) ، وكانتقال صفة ما يعقل الى ما لا يعقل : « عرفناه في اللغات الغربية ثم نقلناه الى العربية فصار من مادتها » ، ومن ذلك تقديم ما يحسن تأخيره وتأخير ما يحسن تقديمه . ولعل شيئاً من الجديد قد عرض للعربية في غير هذا العصر و« كان اجتهاداً من المعربين » . لقد اخذ الاقدمون على ابي تمام نسبة الاخدعين الى الدهر ، « والاخدع من مادة خلق الانسان » .

١ ـ « في الفكر اللغوي »

« لم يفكر الانسان في كلامه ، فقد انطلق في مزاولة هذه الحاجة كما انطلق في المشي والحركة والبحث عن الطعام » (ص ١٣) .

غير انه بدأ في عصور مبكرة يفكر في الحقيقة اللغوية حين بدأ يفكر في سائر مظاهر حياته . فألفت الأمم لغاتها ، وقال كلٌ بقدم لغته ، من الصينيين الى الارمن فالعبرانيين والآراميين وامتاز الاغريق الاقدمون بالتأمل في اصل اللغة وتاريخها ، وكان افلاطون من القائلين بان اللغة « إلهام ومقدرة فطرية » يكتسبها الانسان منذ الخلق . وقد نهج في بادىء الامر نهج البحث والنظر في الالفاظ الاولى من مختلف اللغات ، اما أرسطو فهو القائل بان المجموعة البشرية قد تواضعت في مكان ما على الفاظ ذات نظام خاص ، وقسم الكلمة الى اسم وفعل وحرف كما تناول موضوع الجنس والبسيط والمركب والاعراب .

وتبعاً لآراء كل من الفيلسوفين ظهرت مدرستان : مدرسة القياسيين وزعيمها اريستراخوس (الاسكندرية) ، ومدرسة الشذوذيين الذين انكروا القياس ؛ وزعيمهم كراتيس ، وانتهى الجدل بان تمثل الرواقيون آراء افلاطون ، كما مثل الابيقوريون آراء ارسطو .

وقد فطن الاغريق ايضاً الى بناء التركيب القياسي وردوه الى موضوع ومحمول ، وعرضوا لأنواع الاعراب واختلاف الاحوال اللغوية باختلاف الدلالة على الاشخاص او الازمنة او الاساليب التعبيرية .

وظل تأثير الاغريق قائماً في عصور المسيحية الاولى ، فاقتفى الرومان خطوات الاغريق في اقامة قواعد اللاتينية ،

وبعد انشقاق اللاتينية الى ما نعهده من اللغات الاوروبية ، انقسم الباحثون الى كنسيين يرون في اللغة هبة الهية ، ومدرسيين قالوا بالتواضع .

ثم مكنت الدراسات المقارنة من تصنيف اللغات في مجموعات ، كالهندية ـ الاوروبية والاورالية ـ الالتية ، كما قرر ليبنز عام ١٧١٠ .

« وقد تأثر العرب بهذا العلم الاغريقي وقرأوه مترجماً على يد الآراميين السريان » . وقالوا بـ « التوقيف » انسجاماً مع « الاعجاز » كما قالوا بالتواضع والاصطلاح . وينقل ابن جني رأياً آخر : « ان اصل اللغات كلها انما هو من الاصوات المسموعات » .

واعجب العرب بالفصحى دون « الدارج » . وكيف لا تكون الفصحى سيدة اللغات « وقد جاءت آخراً فنفت القبيح من اللغات قبلها واخذت الحسن » (ص ٢٢) .

وتواصلت الدراسات فاتضح للاوروبيين مدى دقة الهنود في دراسة لغتهم ، وازدهرت البحوث المقارنة ، وتركز الاهتمام (القرن ١٩) في الكشف عن القوانين الصوتية : قوانين غريم (Grimm) . وظهر « علم اللغة العام » . ورأي وايتني (whiteney) في « حياة اللغة وتطورها » كرأي دارون في التطور : « فكأن اللغة عنده من الكائنات الطبيعية التي يعرض لها التطور » . وبدأ بدراسة لغة الحيوانات .

وفي القرن العشرين ظهر فرديناند دي سوسور الذي وجدت مدرسته « اتباعها في الباحثين الفرنسيين » . وصارت اللغة موضوعاً للاناسة وعلم النفس وعلم الدلالة .

« ولقد انتهى علم اللغة الى العلم الصحيح المبني على الملاحظة والتجربة » . وقامت البحوث حول الجغرافية اللغوية . ورغم التقدم ، لا يزال العلماء يدلون بآرائهم عن نشأة اللغة .

٢ ـ « في التطور اللغوي »

ان « التطور الخارجي » للغة ، من حيث الاسلوب والدلالة ، بطيء غير انه لا يعرف التوقف ، « وإن الناس لا يشعرون وهم يتكلمون لغة معينة انها تختلف عن اللغة نفسها » من جيل الى آخر (ص ٢٧) . والتطور يحدث نتيجة التأثر بحضارة امة ما ؛ كما ان النظم والعقائد والتقاليد والعادات والمستوى الثقافي والبيئة . . . تترك في اللغة أثراً ليس اقل من ذلك .

وتتحرك اللغات في طريقين « متضادين » : طريق الانقسام وطريق التوحد . وينطبق الاول على اللاتينية والهندية ـ الاوروبية والعربية التي تفرعت عنها اللهجات نتيجة عوامل شتى : انتشارها في بقاع واسعة ذات لغات سامية ، غزوها لمجتمعات مختلفة ثقافة وتفكيراً ، ونزولها في بلاد تختلف جغرافيتها عن جغرافية المهد العربي . ومن اصحاب القول بالانقسام والتوزع العالم وايلد (H. C. Wyld) .

غير ان طريق التوحد ، ويؤيده يسبرسن ، بيّن في « ان عدد المتكلمين في عصرنا الحاضر بلغة من اللغات المتفرعة عن لغة عامة اصيلة قديمة يبلغ الآن اضعاف مجموع الذين يتكلمون بتلك اللغة العامة العتيقة » (ص ٣٢) . ومن العوامل التوحيدية : الاختلاط والاتصال ومنه المواسم الدينية والاجتماعية وتناقل الروايات والنصوص الادبية عامة ، وعامل التوحيد السياسي ، وعامل التثقيف المشترك ، اضافة الى ظهور المدن وتبادل النشاطات . وهناك ظاهرة تطورية اخرى هي ظاهرة فناء اللغات او زوالها ، « ما حصل للغة المصرية القديمة ثم القبطية » .

« ولا بد من العودة الى اختلاف اللغات » ، اي اللهجات . ان اللهجة « طائفة من المميزات اللغوية ذات نظام خاص » ببيئة معينة هي قسم من بيئة اشمل تنتظم لهجات عدت تأتلف فيما بينها بظواهر لغوية وتكون بذلك ما نسميه اللغة ، وتنحصر الصفات التي تتميز بها اللهجة في النظام الصوتي الذي يخضع لنوع من التطور الداخلي ، حيث ان اصوات اللهجات تختلف باختلاف الشعوب التي تختلف اعضاء النطق عندها : « لسنا بقادرين ان نخرج صوت الضاد على النحو الذي رسمه الخليل » (ص ٣٥) . وكتب اللغة لا تشير عندنا الى اللفظة المفردة وطرق استعمالها عبر العصور وبما ان المجاز حاصل في كل زمان فان التشدد لا يجدي المتشددين شيئاً . فقد تتغير مدلولات احد الدوالّ دون ان يتغير : ريشة ، bureau . . . وقد تجدُّ اصواتٌ في لهجة نتيجة تأثرها باحدى اللغات .

وتظل اللهجات متفقة في ظواهر لغوية ترجع بها الى لغة عامة ، كالضمائر والعدد واسم الاشارة والموصول والاشتراك في المعنى لعدد كبير من المفردات والنظام الجملي . « والرابطة الاجتماعية هي السبب » في نشأة اللهجات . لذلك يضطر اللغوي الى ضبط التوزيع الجغرافي للظواهر اللغوية التابعة للهجات متباينة . وتقضي دراسة التطور اللغوي باعتماد المنهج السوسوري حيث يتم النظر الى اللغات افقياً او رأسياً ، بتتبع تاريخ الحركة اللغوية او بتوسيع النظر الى واقعها الراهن .

٣ ـ « الدلالة والمعنى »

الدلالة او علم الدلالة هو ما أطلق عليه الفرنسي بريال (Bréal) المصطلح Sémantique لأول مرة . وقد تضافر الاقدمون من جهات شتى على البحث في موضوع اللفظ والمعنى . فالنقاد قصروا عملهم على النقد ، ومؤرخو الادب نحوا نحوهم في اجادة اللفظ والمعنى . والمفسرون عنوا بتفسير الفاظ القرآن وبيان وجوهه ووجوه الفاظ الحديث . وتناوله البلاغيون واهل المنطق من وجهتين مختلفتين . يقول متى بن يونس : « المنطقي يبحث عن المعنى ، والنحو يبحث عن اللفظ . . . والمعنى اشرف من اللفظ . . . » (ص ٤٢) . وتناوله اللغويون تناولاً ادى الى وضع المعاجم التي هي « مجموعات ضخمة لألفاظ العربية تعكس لوناً من الوان التطور في استخدام الالفاظ » (ص ٤٢) .

وبما اننا نجهل ، في كثير من الاحيان ، الظروف التي تسببت في شيوع اقوال دون اخرى فاننا مضطرون للاخذ بالمنهج التاريخي للبحث في موضوع الدلالة واستدراك الظروف التي هيأت للشيوع .

ان المعجم القديم لا يتبصر بالعلاقة ما بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي . فلا يربط ، مثلاً ، « انفه راغم » بمس الانف للرغام اي التراب . نستعمل عبارة « اخذبجريرته » (من مادة جرر » ، وليس من صلة بين المعنى الحقيقي : الجر ، والمعنى المجازي : الذنب او الجناية . ويهدينا النظر الدقيق الى « ان الجريرة آتية من انهم يزورون النساء للفجور بهن ، فاذا خرجوا منهن جروا ذيولهم على آثارهم » (ص ٤٤) . و« الجناية » تناول الثمرة « من غير رخصة » و / جرم / مأخوذ من / جَزَّ / ومعناه من « اجتناء الثمرة من غير اذن مالكها » .

ومما يزيد في صعوبة التقصي لتاريخية الدلالة ان اللغويين تنكروا للاستعمالات العربية التي تلت الصدر الاول للدولة الاسلامية وقللوا الاخذ بلغة « التنزيل » وهجروا لغة الحديث وقصروا اهتمامهم بلغة الشعر الجاهلي والصدر الاول . وفي هذا انكار للحقيقة الاجتماعية للغة وانكار لضرورة تطورها .

واذا كان اعضاء المجامع اللغوية العربية واللغويون عامة ما يزالون يلتزمون بموقف الاقدمين ، فان المحدثين ينظرون الى المسألة نظراً مبنياً على علم الدلالة ، ذلك ان المشكلة اللغوية تتعقد لحاجة الحضارة الى ادوات لغوية تترجم عنها ، واللفظة القديمة التي ترجمت عن الاسلام استحالت شيئاً آخر يقتضيه الدين .

ان الدراسات اللغوية الحديثة التي بدأت منذ مطلع القرن ١٩ لم تكتسب صفتها العلمية الا في اواخره . لقد كتب بريال رسالة في «الدلالة» نشرت عام ١٨٩٧ : «Essai de sémantique » ، وتوّصل الى قواعد عامة في تطور الدلالة ، الا انه لم يخرج عن الناحية التاريخية ، ونبه الباحثون من بعده الى الناحية الاجتماعية والعوامل الخارجية الفاعلة في تطور المعنى ، ثم جاء أوغدن (C.K. Ogden) وريشاردز (I.A. Richards) فبحثا في كتابهما The Meaning of meaning تطور المعنى من الناحيتين الاجتماعية والنفسية . ودفعت الحاجة الاميركيين الى الاهتمام بدراسة موضوع الدلالة حلاً لعقد التفاهم بين الاميركيين « وهم غير متجانسين » . ومن اشهرهم الفرد كورزبسكي (A. Korzpski) الذي ذهب الى ان البحث في مدلولات الالفاظ طريقة في الوصول الى حلول لكثير من المشكلات التي تجر المآسي والحروب .

٤ ـ « الألفاظ الاسلامية »

يعتبر القرآن نموذجاً جديداً ، اعربت به العربية عن « دين جديد هو في حقيقته حضارة جديدة » (ص ٤٩) . لذلك اهتم العلماء بفهم لغة القرآن وما فيها من اسرار ، فقد رأى ابو عمرو بن العلاء في الشعر واللغة ادوات لفهم وتدبر معاني القرآن ، وهذا يشكل « غاية كل مسلم » ، وكان ابن عباس وابو عبيدة في كتابه « مجاز القرآن » وغيرهما يشرحون غريب القرآن مستعينين بما ورد من ذلك اللفظ في الشعر القديم ، والالفاظ الاسلامية التي اكتسبت معاني جديدة تدخل « فيما اسميناه : المصطلح العلمي » ، وقد ادى اكتسابها لمعان جديدة الى وضع تصانيف مثل : « مجاز القرآن » ، « غريب القرآن » ، « مشكل القرآن » .

وتشتمل « الالفاظ الاسلامية » على « لغة الحديث » ايضاً ، وعلى مؤرخي العربية ان يقفوا عند هذه الفترة لتسجيل ما فيها من جديد .

٥ ـ « في المشكلة اللغوية »

تبرز المشكلة في ان العرب لا يتكلمون اليوم بالفصيح من العربية ، وربما صعب على العربي في شمالي العراق ان يفهم من قروي اهوازي ، فالمسألة تقوم على تقريب العامية من الفصحى ، وخير الوسائل لتحقيق هذا هو نشر العلم والمعرفة اللذين يساعدان على « رفع مستوى اللغة المستعملة التي هي قريبة من الفصحى » (ص ٥١) . وهذه تكاد تخلو من « اي لفظ دخيل عامي » ، والكلمات فيها ساكنة الأواخر متخففة من قيود الاعراب ، « ولعل هذه

المرحلة مهمة في العودة الى الفصيح المعرب . . . كما في لغة القرآن » (ص ٥٢) .

ان ظاهرة الاعراب من صفات العربية الموغلة في القدم . وهي ظاهرة كانت لسائر اللغات السامية ثم فقدت . فالعبرية تحتفظ منه بأثر « ضئيل جداً » والحبشية تحتفظ بـ « بقايا » من الاعراب ، اما الاكدية فقد تطور اعرابها بالحركات الثلاث الى حركتين فالى الكسرة الممالة ، ويمكن ان تكون النبطية قد اخذت الاعراب عن العربية .

ويعلل المحدثون ، وجلهم من المستشرقين ، الاعراب في الساميات بخلوها من ادغام كلمتين او اكثر في واحدة . وليست هذه الحجة علمية لأن العربية عرفت التركيب الذي يكون به للكلمة المركبة حكم خاص ، وهذا رأي الخليل ومن لف لفه مثل الكسائي والفرّاء ، وقد دار جدل حول دلالة الحركات وعدم دلالتها ، ويمثل عبد الرحمن بن اسحق الزجاجي القائلين بدلالتها ، في حين ان قطرباً يمثل القائلين بعدم الدلالة ، ويذهب ابراهيم انيس مذهب قطرب معتبراً ان هذه « الزوائد » يلجأ اليها لـ « امور فنية » ، كما يظن ان « النحاة قد ابتكروا بعض ظواهر الاعراب رغبة في الوصول الى قواعد مفردة » . وهو يرى مع كثير من « الكتاب المصريين » احتمال تأثر النحاة باليونانية لتعريب المنطق الارسطوي وظهور النحو السرياني في نصيبين .

ويرد ابراهيم مصطفى على ابراهيم انيس مقرراً أن الحركات دوالّ عدا الفتحة التي هي « بمثابة السكون عند العامة » ، وهذا النظر الى الفتحة « غريب » . ويرى مارسل كوهن (M . Cohen) ان قواعد الاعراب لم تكن مراعاة الا في الفصحى ، لغة علية القوم .

« وأريد ان اخلص الى ان هذه اللغة العالية قد ثبت من اصول اللغة وقواعدها انها التزمت الاعراب الذي لم يكن شائعاً ومستعملاً على نحو ما التزمت به نصوص القرآن » (ص ٥٧) ، وهذه النصوص لم تستطع ان تأتي على اللهجات الدارجة : « فالعربية شفيعة التعبير منذ كانت » (ص ٥٨) . والشاهد على ذلك اختلاف القراء في قراءاتهم وشيوع اللحن في مختلف الطبقات . ويكون تقريب العامي من الفصيح بشيوع الثقافة وتيسير المعرفة لابناء العربية .

٦ - « في تاريخ المشكلة اللغوية »

إننا نجهل تاريخ العربية الأولى ، ولا يمكن الاعتماد على النصوص « الجاهلية » لأنها تصور مرحلة عالية تبين فيها المادة قادرة على التعبير عن المادي والمعنوي .

والامثال - وهي تعرض لأي امة - لا يعتد بها . إلا ان « عيوب النظم » تكشف عن مرحلة لم تكتمل فيها موسيقى النصوص الشعرية الجاهلية التي كانت في طور التكون . ولغة القرآن تطلع الباحث على مستوى رفيع من التطور . مما « حدا بالباحثين الى القول بالاعجاز في القرآن » . والأخذ بلغة القرآن قضى على آثار اللهجات الاقليمية ، وبه بانت لغة الكهان ضعيفة ، « الى مثل هذا ذهب المستشرق الفرنسي الكبير (ريجيس بلاشير) » (ص ٦٨) . لقد ادى الحدث القرآني الى العمل على توحيد العربية التي تغلبت على الكثير من معالم اللهجات . عمر يرسل الى ابن مسعود : « أقرِىء الناس بلغة قريش » وعثمان الغى بجمعه القرآن كل ما كان عند الناس « مما هو مغاير لما اتفق عليه » (ص ٦٨) . فلم يبق من معلومات عن اللهجات سوى اشارات لا تكفي لرسم صورة واضحة عن اي لهجة ، كالتزام الالف في المثنى ، عند بني الحارث وغيرهم ، والسيوطي يحشر هذه العلامات اللهجية في « الرديء المذموم من اللغات » كالكشكشة والكسكسة والتلتلة والعنعنة والفحفحة والعجعجة . . . . ونسبتها غير صحيحة ، وليس من المعقول اتخاذ اية لهجة جنوبية صورة للعربية الأولى لما بينها وبين النصوص الجاهلية من فروق .

لم يبق سوى « نصوص العربية المثبتة في كتب اللغة والادب والنحو » من مادة يستخلص منها بعض ما اتصفت به المرحلة اللغوية السابقة لعصر القرآن .

(أ) **الابتداء** : يقول الخليل : « حرف اللسان لا ينطلق بالساكن من الحروف » . لهذا يستعان بالهمزة المحركة « سلّماً للسان الى الحرف الساكن » في مثل اسحنفر واقشعرّ . . . وأمر الثلاثي همزته همزة وصل ، والفات بعض الاسماء للوصل . من هذا يستنتج أن العربية الأولى كانت تجيز الابتداء بالساكن ، ويؤيده جوازه في الساميات الاخرى .

(ب) **التقاء الساكنين** : اختصت العربية بعدم التقاء الساكنين لتجيء « على هيئة مخصوصة موسيقية منسجمة » (ص ٧٣) ، لكن مادة قليلة جداً تشير الى وجود التقاء الساكنين كاسم الفاعل من الثلاثي المضعف ، والثلاثي الساكن العين في الوقف ، ووزن / افعالّ/ و / غارّ / . وهذا كاف لبيان سمة من سمات العربية السابقة للقرآن .

ومن سماتها ابدال احد التضعيفين ياء : استمرّ استمرّيت ، وصياغة / مفعول / من الثلاثي الاجوف :

باع مبيوع ، ومطل الحركة او تطويلها في مثل : يَنْبُوع (يَنْبُع) و/ يعقِيْد / و / عامود / وعدم استقرار عين المضارع من الثلاثي : يفسُدُ و يفسَدُ . . . ويدخل في ما تخلف من العربية السابقة جمع الكلمة على عدة صيغ ، وملحقات الجمع للمذكر السالم : / شيوخ / و / اشياخ / و/ شيخة / ، و / أرضون / و / سنون / . . . ومنه ايضاً « الابنية الغربية » مثل : / احرنجم / و / شغموم . . . وهي متعلقة بالاوصاف الحسية .

« ان عملي كان استقراء النواحي اللغوية التي يمكن ان تكون مادة مهمة في مراحل اللغة القديمة » (ص ٨٠) .

٧ ـ « من اوهام النحويين الاقدمين »

« كان على النحاة ان يفيدوا من اوجه الخلافات في القراءات وذلك لأنها لون من الوان اللغات الخاصة وهو ما ندعوه بـ « اللهجات » (ص ٩٣) .

لقد سمع جماعة النصوص القرآنية من النبي ، وكان اختلاف في سماعهم لهذه النصوص . وذاع الحديث : « أنزل القرآن على سبعة احرف » فتدبره ابن الجزري باعتباره يشير الى اختلاف في الحركات او في المعنى او في الحرف او في الصورة او في التقديم والتأخير او في الزيادة والنقصان . لكن اختلاف القراءات باختلاف اللهجات تجاوز هذا الحصر الى ما عرف بالقراءات « الشاذة » كقراءة « هِيَّاك » مكان « إياك » في « إياك نعبد » ، و « الشَّيَرة » بدلاً من « الشجرة » ، و « بعولهن » بدلاً من « بعولتهن » ، و « عَتِّى » بدلاً من « حتى » . . .

لم يكن القراء مدركين هذه « الحقائق التاريخية » لانصرافهم الى التعليل والفلسفة دون النظر في « الظروف التاريخية » لهذه العربية . بل ذهبوا الى حد تخطئة بعض ما ورد في قراءات الثقات ، واخذوا بالشواهد المصنوعة ، ولم يروا في النحو « اداة يوصف بها الكلام » ؛ لذلك قالوا بزيادة / أل / في « ولست بالأكثر منهم حصى » لينسجم الفهم مع القاعدة : « لا يؤتى بالمفضل عليه مجروراً بمن » . ومنه رد الزمخشري لجر / الشركاء / في : «وكذلك زين لكثير من المشتركين قتلُ اولادَهم شركائِهم » . لم يشأ الزمخشري ان يحيد عن مقالة النحويين .

كان الكوفيون اصوب منهجاً باعتمادهم القراءات مادة بنوا عليها نحوهم . ولعل ابن جني يلمح الى شطط النحاة حين يعزفون عن الأخذ بما ثبت من القراءات ، إذ يصرح : « لا نقطع على الفصيح يُسمَع منه ما يخالف الجمهورَ بالخطأ ، ما وُجِد طريق الى تقبل ما يورده » .

٨ ـ « الأضداد »

اقدم من كتب في الاضداد خمسة هم قطرب والاصمعي والتوزي ويعقوب وابن السكيت وابو حاتم السجستاني . وتبعهم ابن الانباري وابو الطيب الحلبي ثم ابن الدهان ، وانكر ابن درستويه الاضداد وابطلها . ورد عليه احمد بن فارس مثبتاً . ويبدو أن الشعوبيين ازروا على العرب وقوعهم في الاضداد ، فبرره هؤلاء . لاجل ذلك ربط ابن الانباري معنى الكلمة بما يسبقها ويلحق بها (شبه عمل البنيويين) . ويشير هذا ضمناً الى استحالة دلالة اللفظة على الضدين في وقت واحد . فالتطور في الاستعمال ادى الى التضاد في امثال « رغب في » و « رغب عن » .

وقد يخطىء المفسرون فيجعلون من الاضداد ما ليس كذلك كالذي نراه في «يظن» من قوله : «قال الذين يظنون انهم ملاقو الله ». ويرى ابن الانباري أنه « إذا وقع الحرف على معنيين متضادين فالاصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع » (ص ٩٩) ، وهذا في باب « ما اتفق لفظه واختلف معناه » . ولعل شوق الدارسين الى معرفة فرائد العربية قد دفعهم الى تسجيل الاضداد والتوسع فيها : الاصفر يقع على الاصفر والاسود . وربما كان الابدال طريقاً الى الضدية : أسَرَّ وأشر . وقد تدعو اليها اعتبارات اجتماعية : بصير تقع على الاعمى والمبصر . ويمكن ان يؤدي التهكم الى جعل المادة دالّاً لمعنى يضاد ما كانت له .

٩ ـ « الابدال والقلب »

ذكر سيبويه ان في العربية اكثر من ثلاثمئة وزن اسمي . وقد تكون هذه الوفرة تجاوباً مع تلمس « الرشاقة » والموسيقى وتعدد « اللغات » .

ومن سبل الاكتناز والزيادة ابدال حرف من حرف يقربه مخرجاً او يشتمل على بعض خواصه او يكون بعيداً منه . القريب : قضب وقضف ، والبعيد : قطع وقطف . .

وقد صنف فيه اللغويون الاوائل وتبعهم في ذلك المتوسطون والمحدثون . وخصه ابن جني بكتاب « تعاقب العربية » وبـ « باب الحرفين المتقاربين يستعمل احدهما مكان صاحبه » في « الخصائص » . . . وجعله ابن فارس في « الصاحبي » « من سنن العرب » : قَدَحَ ومَدَهَ . . .

ويقول ابو الطيب اللغوي : « تتقارب اللفظتان في لغتين لمعنى واحد » . فالذين يعرفون بـ / ال / ، غير الذين

يعرفون بـ/ أم / . وقال ابو حيان : قلما تجد حرفاً الا وقد جاء فيه البدل . ويرى ابن جني ان « اصوات الحروف على سمت الاحداث » : / خضَمَ / لأكل الرطب و / قَضَم / لأكل اليابس، ويرى ابن السكيت ابدالاً في بيئة واحدة: أنفحة ومنفحة ، ويغلب الشدياق الابدال في حكاية الاصوات المتشابهة : قت ، قد ، قض . . . ويأتي الثالث لتفريق المعاني .

والتفت الفرّاء الى تأثير الحروف في ما جاورها فتبدل : السين بعد ط. ق. غ. خ. تصير صاداً في لغة بلعنبر، والسيد البطليوسي يجعل الحرف الاقوى يغلب « الاوهى » . ورد المبرد تعاقب الحروف الى قرب المخارج وفعل ابن جني وغيره ذلك .

واعتبر الاقدمون ابدالاً الياء التي يستغني بها عن فك التضعيف : تَقَصَّصَ : تَقَصَّيْت . والعامية تبدل « في الاحرف التي تتقارب مخارجها مع اختلاف البيئة » (ص ١١٩) . وكثير من الابدال الذي نص عليه يفتقر للشاهد الصحيح . « وما اظن ان العربية تفيد من هذه السعة غير المقتضاة » (ص ١١٩) .

اما القلب فهو « نحو جذب وجبذ » . ورأى ابن فارس ان كثيراً منه غير صحيح ، والدارجة تعرف القلب : يساوي ويواسي . والاطفال يقلبون لقلة ادراكهم لغة الكبار ولصغر سنهم .

وخلاصته ان مواد كثيرة ترجع لجماعات عدة قد اجتمعت في الفصحى التي تدعى « لغة قريش » أو « لغة الحجاز » على غير اساس علمي . ومن تلك المواد ما ادى اليه الابدال والقلب اللذان يشيران الى شيء من تاريخ العربية .

١٠ ـ « تحقيق لغوي في الصيغ والاستعمالات »

« عملاً بالمنهج اللغوي التاريخي » يتناول البحث طائفة من الصيغ المستعملة حالياً استعمالاً مختلفاً عن الوجه الفصيح المشهور .

● مدير : لعلهم حملوها على « فعِيل » فجمعوها على « مدراء » لا على التصحيح .

● سائح : جمعوها على « سُوَّاح » . وقد تكون ضمة « سُيَّاح » وراء هذا التحول .

● مهمة ومشكلة : جمع المؤنث السالم يغني عن التجاوز بجمعهما على مهامّ ومشاكل .

● تجارُب : لعل ضمة الراء عائدة الى ضمه في الافراد : تجرُبة .

● حاجيات : « لا ندري كيف جيء بهذه الياء » التي منعت الجمع على / حاجات / .

● أفعال : في العراق يسمع مذيعون يمنعون من الصرف ما كان على هذا الوزن ، ولعلهم جروا في ذلك مجرى / أشياء / .

● استهتر : المستهتَرون في الحديث هم المولعون بالذكر . والمستهتِر في لغتنا هو العابث .

● شَجَب : هي بمعنى حزِن في القديم ، اما اليوم فهي بمعنى ندد واستنكر .

● مخابرة : تعني المزارعة في القديم . وتعني اليوم الاخبار « بالهاتف » .

● عاش المسألة : بمعنى كابدها ، « وهذا الاستعمال كما يبدو نقل للاسلوب الاجنبي » (ص ١٣٠) .

● طَمَّن : هذا الفعل لا وجود له في الفصحى القديمة ، ويبدو أن / طَأْمَنَ / من / أمن / بزيادة طاء .

● إخصائي : يراد بها الاختصاصي في العلوم والفنون والفرق بعيد .

● « ما دخلت الدار إلا ورأيت الطفل يلهو » ، جملة صدرت بالنفي . وواو الحال فيها لا توجد في لغة التنزيل : (وما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزئون) .

● اجتماع الشرط والقسم « لئن » : قالوا تكون لام / لئن / موطئة للقسم . وحفظ ذلك ابو تمام وخالفه البحتري الذي جعل الجواب الى الشرط .

١١ ـ « الثقافة العامية في التاريخ »

اللغة اقوى الروابط في اي مجتمع وهي « رمز الى حياتهم المشتركة وضمان لها » . وكونها رابطة بين الاجيال سهّل التعرف على تاريخ الكثير من اللغات ، فالانتربولوجي مالينوفسكي يرى ان اللغة حلقة في سلسلة النشاط الانساني وانها لم تكن مجرد وسيلة للتفاهم ، وهو يسجل في دراساته لمختلف قبائل استراليا وجزر الهند الغربية أن « للصيادين لغة تختلف موسيقاها عن موسيقى لغة الزرّاعين» وان الالفاظ سهلة مع العمل اليسير ومعقدة مع العمل المعقد ، وابن خلدون يعرض في « المقدمة » رأيه في « لغات مجتمعات الامصار فيقول : « وإن كلاً منهم متوصل بلغته الى تأدية مقصوصة والابانة عما في نفسه ، وهذا معنى اللسان واللغة ؛ وفقدان الاعراب ليس بضائرهم » (ص ١٤٥) ، ثم يقول : « فالاعراب لا مدخل له في

البلاغة . . . فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه اهل الملكة» اللغوية ، « ولا عبرة بقوانين النحاة » ، « واساليب الشعر وفنونه موجودة في اشعارهم » غير ان « كلماتهم موقوفة الآخر » . (ص ١٤٥) .

هذا يذكر بان « مشكلة الفصيح والعامي قائمة في كل عصر » ، وتنقل الينا الكتب ان عمر أدَّب اولاده بسبب اللحن ، وان عبد الملك كان يحذر ابناءه منه ، وان مالك بن انس قد لحن ، وان ايوب السختياني قد لحن حتى في « كتاب الله » وقد مر ذكر الخلاف في القراءات تبعا للهجات : « الشَّيَرة » ، « صلمتموه » . . .

لقد عرفت العامية « في ايام الخليل بن احمد » ؛ وقيل ان الكسائي الف رسالة في لحن العامة وذكر « الاغاني » ان المغني ابراهيم الموصلي لقب بالموصلي لقوله :

« أنا جت من طرف الموصل
أحمل قلل خمريا »
من شارب الملوك فلا
بدّ من سكريا »

وجاء في « البخلاء » : « اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطعام فإياك ان تستعمل فيها الاعراب . . . فإن ذلك يفسد الامتاع بها ويخرجها من صورتها » . « ونستطيع ان نتبين في كتب الجاحظ مادة غزيرة في الثقافة العامية ، وانها خير مصدر لمعرفة البحث اللغوي التاريخي » (ص ١٥٠) ، ومن ذلك : نشال ، نشاف ، مرسل ، لكام ، مصاص ، نقاض ، ولاك ، لطاع ، مخطراني (الذي يفتح فاه فلا ترى له لساناً) . . .

ان الاخذ بنواحي الحضارة المتعددة الاطراف يلزم العربي التزود بآلات منها اللغة ، « لذلك فالتعلم والتلقين واجب » (ص ١٤٧) .

١٢ ـ الاصول التاريخية للعامية البغدادية في « الف ليلة وليلة »

لعل اهتمام الاعاجم من المستعربين بـ « الف ليلة وليلة » قد نبه الشرقيين ، ولا سيما العرب ، الى العناية بهذه « الليالي » التي تعكس الحياة الاجتماعية في فترات من التاريخ الحضاري لكثير من بلاد المشرق القديم . والكتاب يمثل حياة العامة والخاصة : من الخلفاء الى الحمالين . والجانب البغدادي فيه يتميز على سواه . فنصوصه تصور حياة طبقات المجتمع البغدادي وتدل على لون من العامية البغدادية . والقصد بالعامية هو ما شاع بين العامة من الألفاظ فاعتبر عامياً ؛ « ذلك ان الخاصة تجتنب من اللغة ما يدور على ألسنة العوام لتسلم لها لغة خاصة » (ص ١٥٣) . وقد اهملت نصوص الأدب العامي مسايرة لذوق الخاصة ، وربما كانت لغة القرآن قد فرضت على المسلمين الاخذ بـ « اللغة الرفيعة المهذبة » . « ولا بد ان تكون العامية قد صاحبت الفصيح المهذب في جميع عصور التاريخ اللغوي » (ص ١٥٤) . فظهور اللحن على ألسنة « الصفوة المهذبة » دليل على قدمه وعلى تأثر هؤلاء بالألوان الدارجة العامة من اللغة . وقد فطن الجاحظ الى مصطلحات العامة واساليبهم كما فطن الى لغة الاطفال الذين يرمزون للكلب بلفظ « واو وا » وللشاة بلفظ « ماء ما » . ويقول : « ان النبطي القح يجعل الزاي سيناً والعين همزة . . . (ص ١٥٦) .

ويحصل في بغدادية الف ليلة وليلة « نوع من الابدال اللغوي او القلب المكاني في الكلمة (métathèse) (ص ١٥٧) . ومن مظاهرها استعمال الفاظ فصيحة على غير ما ألف في الفصيح ، وفيها الدخيل الذي عمَّ بحكم الحاجات والغزو والتمازج الثقافي . وتظهر « هذه العامية » في الاسلوب العام لصياغة الكلام وتركيبه تركيباً يؤدي صورا لم يحتملها « الادب المترفع الرفيع » . وعلى الرغم من كون اصحاب الحكايات ، الذين هم « على علم بدقائق اللغة والاسلوب » يعيرون كل طبقة من الناس لغتها الخاصة ، فان الحوار يميل الى الاسلوب العامي المشحون باللفظ العامي « الذي يراد منه ان يكون ملائماً لمقتضى الحال » « فاللعامة اصطلاحاتهم الخاصة » « كما هي الحال في كل زمان ومكان » (ص ١٦٤) .

وهذا جزء مما ورد في « الف ليلة وليلة » من العامية :

● ج ١ ، ص ٣ .

« ولم يزالوا في بوس وعناق » : « البوس » لفظ عامي ، عده الخفاجي من الدخيل الفارسي ويعني التقبيل ، والجمع في « يزالوا » ليس للتبجيل بل هو قائم ، في العامية ، مقام التثنية . « فلما رأى الملك شهريار ذلك طار عقله من رأسه » : طيران العقل اسلوب عامي . وهو معروف في بغداد وقد لا يقتصر على اقليم دون سواه .

● ج ١ ، ص ٥ .

« فتوجه الى منزله وهو غضبان مقهور خايف على نفسه من الملل » : « مقهور » لفظ عامي يراد به « متألم » ، وهو معروف في بغداد خاصة وفي العراق بصورة عامة . و « خايف » على « فاعل » دون الهمز جرياً مع العامية

العراقية كما هي الحال في « ياكل » . وقديماً هربت القرشية من الهمز فردها القرآن اليه .

● ج ١ ، ص ٦ .

« وحرك ذنبه وضرط وبرطع » : « والكلمات والاسلوب من العامي الادنى » (ص ١٦٥) ، وكتب اللغة لا تعرف كلمة « برطع » ، فقد تكون من مولدات العامة ، « ويدخل في باب (السخف) الفاظ البذاءة » خاصة ما تعلق بالاعضاء الجنسية واعمالها .

وترد عبارة « انت فرحان وصاحبنا رايح يموت » في نفس الصفحة ، فلفظ « رايح » يؤدي معنى « يوشك » او « يكاد » ، وما نزال نستعمله في اغلب الاقاليم .

ويستطيع القارىء ان ينحو نحواً مماثلاً او قريباً من هذا في النظر الى ما جاء في « الف ليلة وليلة » من « مواد عامية » مثل :

« حَطّ يده في خرجه » . « واقيم عليه العياط والصراخ » - « ففي ثاني يوم » . « ففتحت انا دكاناً » . « الف دينار نتسبب بها » . « ونشف ريقه » . « يا بعيد ، لأي شيء تقتلني » . « أغنيتك لولد الولد » . « يحب الفرجة والتنزه » . « الغزالة تشب على رجليها » . « البازي يلطشها على عينيها » . « ان السلطان متشوش » . « وشامة على كرسي خده » . « ثم توفي والدي وتسلطنت من بعده » . « او هي تخلّيه باختياره » . « اجلس ، على الرأس والعين » . « وانا اطوّل بالي عليها » . « هذا شيخ كبير خرفان » . « وكل منهما يتولاها جمعة » . « سمع حسها » . « حَوْش البيت » . « فقالت : يا حبيبي اجي عندك » . « وقال الحمار : بسم الله » . « اجبر خاطرها بكلمة » . « كُلْ ولا تستحي » . « فانه يطهرّ ولده » ، « اريد ان تغني لنا شيئاً من شان خاطر هذا الصياد » . « رجل مسكين مديون » . « كل ما حكى هذا بطّال » . . . .

« هذا النمط العامي الذي عرضنا لنماذج كثيرة منه يستمر في نصوص الكتاب في الجزء الثاني أيضاً » (١٩٨) من « الف ليلة وليلة » .

● ج ٢ ، ص ١٥ .

« (فحلفت له الفاً وخمسمائة يمين لا اخونه) » : اللجوء الى العدد الكبير لاثبات حقيقة هو اسلوب « عامي واضح » . وفي بغدادية اليوم : « قلت له خمسين مرة » . « وربما بولغ في هذا الاسلوب على ظن لغة الحكاية » (ص ١٩٩) .

وعلى هذا جرى النظر في عدة عبارات من الجزء الثاني « فأت لنا بزوجين خلاخل . . . وحياصة » . « الزلابية اكلها زين » . « اي شيء تطلب يا أسطا » . « ازال بكارتها فوجدها بنت بكر » . . . .

« ونقرأ الجزء الرابع فلا نرى شيئاً جديداً يستحق الذكر » (ص ٢٠٣) .

١٣ - « العربية التونسية »

« وقفت على اشياء كثيرة تتصل بلغة التونسيين فرأيت أن اسجلها واشير اليها خدمة للتاريخ اللغوي » (ص ٢٠٥) . وهي استعمالات اقليمية عرض لها ما يبعدها عن الفصيح المشهور ، يقول التونسيون : « حَجَّرَت الحكومة الافطار العلني » والمعروف استعماله ثلاثياً مجرداً وكما يبني منه / تحجر / ، ويقولون : « تحصلت الحكومة على النتائج » بدلاً من / حصلت على / . ومن اقوالهم : « وقع النقاش » و « وقع بحثها » . منها : « أطرد العامل من عمله » . ومنها : « اقتبل فخامة الرئيس الوفد » بدلاً من / استقبله / . ومنها : « ذكرت الرصيفة الثريا . . . » بدلاً من / الزميلة / للجريدة . ومنها : « التصبير » اي التعليب . وعندهم : « يجوز لمتسوغي اراضي الدولة » ، اي مستأجريها و « الوسق » : البضائع . و « التربص » : الدورة التدريبية (Stage) . و « الحرفاء » : الزبائن . و « الاحواز » ، والضواحي أو الارباض . « والولاية » اداريا هي المدينة الكبيرة وعليها « القائد » (قبل الاستقلال) . و « الفلاحة » هي الزراعة « ومصلحة الاستخلاص » : مصلحة الاستحصال ، « كاتب الدولة » : الوزير (Secrétaire d'Etat) . « القارّ » : الدائم ، « الجهوي » نسبة في جهة ، « المتفقد » : المفتش . « المطلب » : العريضة .

ومن الالقاب العسكرية : « الشاوش » ، « الباش شاوش » ، « الاميرألاي » ، « القائم مقام » . . .

ومن المصطلحات القضائية : « محكمة التعقيب » : محكمة التمييز ، « سابقية الاضمار » : سبق الاصرار ، « التدليس » : التزوير . « المعمرون » : المستوطنون الفرنسيون (Colons) .

ومن الاسلوب المترجم : « الجريدة الناطقة » : نشرة الاخبار ، « التعاضدية » : التعاونية ، « الوزير قابل طائفة من الاطارات الحزبية » والاطارات ترجمة لـcadres الفرنسية ، والارض الكبيرة المعدة للزراعة تسمى :

« هنشير » . والزيتون الذي ينبت طبيعياً اسمه : « الجالي » . « عصير الغلال » : عصير الفواكه ، ومن اسماء التين عندهم : « الكرموس » و« الشريحة » ، ولا نعرف لذلك وجهاً » . (ص ٢٢٣) ، « الفقوس » : القثاء او الخيار . « علوش » : الخروف الصغير ، « الحلوف » : الخنزير ، و« العتروس » للعنز .

١٤ ـ « الجديد في اللغة والمعجم العربي الحديث »

« لعله من غير المجدي في عصرنا الحاضر ان نبحث في اصل اللغة ، والذي يعنينا من اللغة انها مظهر ونشاط للطبيعة البشرية . . . مظهر من مظاهر علم الاجتماع » (ص ٢٢٧) .

إن علم اللغة ، وهو « من العلوم الغربية الحديثة » ، يتصف « بالصبغة العلمية الخالصة » ، و« لم يعد ذلك مادة يستعان على ادراكها بالتأمل . بل هو مادة موضوعية يتبع في معالجتها المنهج الوصفي ، ومن هنا يدخل التطور اللغوي في هذا المنهج » (ص ٢٢٧) .

وقد ردوا تطورها الى « الاختلاف الذي يحصل في اعضاء النطق » والى « ما يطرأ على المجتمعات من اختلاف الظروف الجغرافية والمناخية » . وقد حلا لبعضهم ان يفسر التطور اللغوي بقوانين مندل في الوراثة . واستعاروا لاجل ذلك طريقة دارون في التطور ، وقال ليل : « ان الانواع في الطبيعة ، واللغات في التاريخ تتغير تبعاً لنواميس متشابهة . . . والعاملان الجوهريان في اللغتان هما . . . التغير والانتخاب » (ص ٢٢٨) . وقال شيلخر في كتابه « دارون وعلم اللغات » : ان مبادىء دارون تنطبق جميعها على كيفية نمو اللغات » .

هذه « المحاولات » لم تكن سوى « مجرد آراء » اخذ بها اللغويون في مطلع هذا القرن . غير انه « من الثابت ان التطور اللغوي مادة اللغة . . . واعني بذلك الالفاظ التي تبنى منها اللغة » (ص ٢٢٨) .

وعلى الرغم من ان عربيتنا تزخر اليوم بمئات الالفاظ الجديدة المولدة والمعربة فان اللغويين ما زالوا مترددين في عد هذا الجديد من الفصيح ، في حين يحتم المنهج الوصفي علينا ان نأخذ هذا الجديد ونعده « من مادة هذه اللغة » . وينبغي ان نفرد له معجماً لغوياً حديثاً .

« وهذه اشتات جمعتها من هنا وهناك » :

الامبريالية ، الانتاجية ، الانتهازية ، الانهزامية ، البرجوازية ، التقدمية ، الثورية ، الجمهورية ، الديمقراطية ، الديماغوجية ، الرأسمالية ، الرجعية ، الفوضوية ، الكولونيالية ، المحسوبية ، المسؤولية ، الوصولية ، السطحية ، المواطنية ، التقنية .

بنيت هذه الألفاظ ، إن تعريباً وإن توليداً ، على المصدر الصناعي . وبني غيرها بناء آخر على المفعولية والفعلية والمصدر : العملاء ، المؤتمر ، الرتابة ، الصفاقة ، التأميم ، التخطيط ، المعطيات .

وقد اورد المؤلف المقابل الاجنبي لما عرب ، كما شرح هذه المواد بمعانيها العصرية وقايس ما بين بعض المدلولات العصرية والمعجمية القديمة .

تعقيب على :

« التطور اللغوي التاريخي »

يقول المؤلف : « لعله من غير المجدي في عصرنا الحاضر ان نبحث في اصل اللغة ، والذي يعنينا من اللغة انها مظهر ونشاط للطبيعة البشرية . . . مظهر من مظاهر علم الاجتماع » (ص ٢٢٧) . ويقرر المؤلف ان « علم اللغة » ، هو « من العلوم الغربية الحديثة » وهو يتبع في معالجة اللغة « المنهج الوصفي » الذي يتصف « بالصفة العلمية الخالصة » .

يتناول البحث مادة لغوية كما هي على ألسن المتكلمين بها او كما هي محفوظة في النصوص المدونة ، ويتشعب ليطول مجموعة لغات في آن او في آونات مختلفة قرباً وبعداً من اللغة الراهنة ، ويتبين ان اللفظة والعبارة تتطوران صوتاً وتركيباً . ويصل الأمر الى حد الامساك بجذور لغوية تفرعت الى الفاظ . وقد يصل الأمر بالبحث الى حد اكتشاف اصول صوتية طبيعية لهذا الجذر او لذاك . كأن تجد ان الجذر / مص / تفرع الى الفاظ ، ثم تجد ان الاصل الصوتي لهذا الجذر موجود في اصوات الامتصاص . فيكون الجذر / مص / مبنياً من مجمل تفاعل تلك الاصوات مع اسماع الناس في وسط بعينه ومن مجمل ذلك التفاعل مع حاكية اولئك الناس ، اي اجهزة النطق عندهم .

واذا كان من الصعب على الدارسين اعادة المادة اللغوية الى جذورها فالى الاصول ، فان القول : « من غير المجدي في عصرنا الحاضر ان نبحث في اصل اللغة » يشكل اعلاناً صريحاً عن تلك الصعوبة وعن عجز الباحث عن التعمق في البحث الى منشأ الالفاظ . والذي يدرس تطور المادة اللغوية لا يقتنع ، إلا عاجزاً ، بالوقوف دون ادراك الاصول . ذلك ان الألفاظ والعبارات هي من الكائنات التي تولد وتموت ثم تولد وتموت . ويحتم علينا

كونها وفناؤها ان نرصد اصلها او منشأها ، وهذا لا يتعارض مع المنهج الوصفي ، لأن تتبع زوال لفظة هو من ضمن المنهج الوصفي وتتبع نشأتها هو كذلك من ضمنه. وسواء في ذلك نشوء اللفظة من مواد صوتية طبيعية وانسانية غير لغوية أو لغوية .

يقول المؤلف : « ومثل هذا الفعل (جرم) وهو مأخوذ من المضعف (جرَّ) » (ص ٤٤) .

على اي يقين قام هذا القرار ؟ يبدو أن المؤلف يأخذ بنظرية الثنائية ، وبأن الثلاثي يبنى بزيادة حرف لتفريق المعاني الفرعية من المعنى العام . ولكن يبدو ان / جَرّ / جذر بني من تفاعل اصوات متلاحقة (تحمل جرسي الجيم والراء مثلاً متلابسين مع جروس اخرى اقل وضوحاً في السمع) مع الاسماع واجهزة النطق ، ومن تلك الاصوات اصوات خرير المياه واصوات الطيور الغردة واصوات الغرغرة عند الاطفال واصوات الحشرجة عند المدنفين . . .أما الزيادة ، اي الحرف الثالث، فقد يكون اصيلاً كما قد يكون تفريعاً للجرس الثاني ، ويمكن ان يكون وليد التباس سمعي فيبني على تقارب جرسه من جرس ما ابدل منه ، او وليدة تكملة وزن .

ثم ان القرابة الصوتية والدلالية ما بين / جرم / و / غرم / و / قرم/ و / كرم/ تشير الى اصالة الثالث وحركية الاول دون ان تمنع حركة وتطور العناصر الثلاثة . ويمكن ان تلتقي / الجريمة / مدلولاً مع / الجريرة / بناء على حركة الفكر التي تنحو بمدلول اللفظ غير منحى النطق والسمع باصواتها . انت تجد قرابة دلالية ما بين / العاقبة / و / الذنب/ و / الجريرة / و / الجريمة / و / الغرامة/ على ما بين الاوليين والتوالي من بعد صوتي .

ويعتمد المؤلف في ابراز « التطور اللغوي التاريخي » الى الوجود على مقارنة معاني الفاظ وتعابير من « الف ليلة وليلة » او من اللهجة البغدادية والتونسية او من المولد والمعرب بمعاني جذور تلك الالفاظ كما وردت في المعجمات العربية التي اوقفت وحبست مدلولات الألفاظ عند صدر الاسلام بما فيه العصر الأموي . وكان الموضوع يقتضي تتبع معاني اللفظ عبر العصور والاجيال : مما اثر عن الجاهلية الى اليوم مروراً بمعاني اللفظ المتغيرة ما بين عصر وعصر وما بين كاتب وكاتب ، ومروراً بالتطور الصوتي الذي عرفه اللفظ عبر تلك الحقب . وكان ذلك جديراً باعطاء مثل يكشف جانباً من حركة فكرية عربية تسبر مختلف ابعاد المدلول وتعبر عن مدى تطورها قياساً على ما بلغته من اضاءة الجوانب المظلمة في ذاك المدلول ، وهذا النقص يؤدي احياناً الى احكام جائرة مثل :

« وفعل الحب لا يكون ثلاثياً إلا في العامية » (١٦٩) .

ونجد نفياً لهذا القرار في شعر المتنبي :

حَبَيْتُكَ قلبي قبل حُبِّكَ مَنْ نأى . . . . .

إلا إذا اعتبر تعبير المتنبي / حبيتك / من العامية .

ويقول المؤلف : « أنبه القارىء ألاّ يتخذ من العامية البغدادية المستعملة في ايامنا اصلاً يقيس عليه ما يجده من مواد عامية في هذا الكتاب » (الف ليلة وليلة) (ص ١٦٠) . لكن المؤلف يعتمد فقط على ما ينهي عن الاعتماد عليه . فهو يبرهن على عامية النص بمثل هذه الأقوال : « والنص ، كما هو واضح ، عامي دارج » (ص ١٨٩) ، « وهذا نص لا تخفى عاميته » (ص ١٩١) ، « والعامية واضحة كل الوضوح في هذا النص » (١٩٧) . . . فالمؤلف يعرف العامي : العبارات والألفاظ التي شاعت على ألسنة العامة . والناس يعرفون العامي اكثر من الكتبة ، اذا لاحظوا شبهاً بين حكي وحكيهم قالوا : « حكيهم متل حكينا » او « حكيهم مش متل حكينا » ، اذا وجدوا فروقاً .

واذا أُحْصِيَتْ الألفاظ والعبارات الشائعة في لهجات الأقطار العربية وقورنت بالألفاظ والعبارات المكتوبة يتبين ما يبقى خاصاً بالمكتوب . وهذا السبيل لم يسلك بكفاية وجدية بعد .

والمؤلف يقسم العامي الى « ادنى » و « اعلى » : « (وحرك ذنبه وضرط وبرطع) ، والكلمات والاسلوب من العامي الادنى » (١٦٥) . إلا ان المؤلف يكمل فيقول : « والضراط معروف أيضاً » (ص ١٦٥). فهل نعتبر قوله من الفصيح « الادنى » ؟!

ان المعاني المستقبحة لها عباراتها كما ان للمعاني المستحسنة عباراتها . واذا المحنا الى المعنى المستقبح بتعبير مستحسن فلا يعتم هذا التعبير ان يصبح مستقبحاً لتلابسه مع مدلوله الجديد المستقبح ، الا ان جمال القطعة الفنية لا يكون مرهوناً بجمال الموضوع ، فقد تجد من المواضيع ما تعافه النفس وتجد ان الفنان قد بنى حوله عملاً فناناً ، كفعل المتنبي في هجاء كافور وجماعته :

« لا يقبضُ الموتُ نفساً من نفوسهمِ

إلا وفي يده من نتنها عُودُ »

او كما يقول الجاحظ في الحب على لسان العامة :

«لبستُ برقعَ هجرٍ بعد ذلك في
إصطبل حبٍّ فروثُ الحبِّ منثورُ »

إن كل من داخل الخاصة وعاشرهم عن قرب يعرف انهم أقذع ألسنة من العامة ولكنهم يحاذرون ان ينكشف منهم هذا الجانب . يبقى انْ ما يكتب له امتياز على ما يحكى ، هو امتياز التخير وجودة الاخراج والبناء . ويدخل في بابه كل كلام منطوق متخيَّر . ويضاف الى ذلك ما ورثه المكتوب في عصرنا من هالة كانت للمكتوب القديم النادر . وقد يتراجع امتياز تعبير على آخر اذا تحول كل قارىء الى كاتب يكتب ما يريد باي لهجة او حرف يريد ، ما خلا فضل وامتياز محكي على آخر من حيث الامتاع والفائدة .

ان القول : « ويدخل في باب (السخف) الفاظ البذاءة » ، هو تعبير الهيئة المترفعة ، بخوف بذيء على مصالحها من العامة الذين اكلت تلك الهيئة حقوقهم وشاءت ان تبني لهم بها الاصفاد واللجم .

ومن الملاحظات التي يجدر ذكرها :

ـ يقول المؤلف : « اعضاء النطق تختلف باختلاف الشعوب » ، « ونتيجة لهذا ، فاصوات اللهجات تختلف باختلاف الشعوب » . « ومن اجل ذلك فان اعضاء النطق عندنا مثلاً تختلف عنها عند اسلافنا ، ومن اجل ذلك ايضاً أننا ننطق باصوات ونخرجها مخرجاً يختلف عما ذكره علماء الصوت من القدامى كالخليل وسيبويه » (ص ٣٤ ـ ٣٥) .

ما من شك في ان الشعوب تختلف عن بعضها اختلافاً طفيفاً في الاعضاء . وما من شك في ان اعضاء النطق تختلف بعض الاختلاف من شعب الى آخر بل ومن شخص الى آخر ، ومن جنس الى آخر (الانثى والذكر) ، ولكن الجميع يعرفون ان الطفل الذي يربو في وسط اجتماعي منذ ولادته يتعلم لغة ذلك الوسط كائناً ما كانت سلالته . فلا يسعنا ان نميز اصوات كلامه من اصوات اهل لغته على الرغم من الفروقات العضوية التي تميزه منهم والتي كانت له بالوراثة فتطورت بالعمل بعض التطور . هذا يعني ان اعضاء النطق عند الجنس البشري مؤهلة ، فيما لو خضعت للتدريب ، لأن تخرج اصوات الفاظ الأمم المختلفة . لذلك نقول : ان النطق بصوت لغوي دون آخر انما يرجع الى ظروف الحضارة الاجتماعية لشعب من الشعوب ، فالطفل العربي الذي ينشأ في فرنسا يحتاج من الدربة ما يحتاج اليه الفرنسي كي يلفظ حرف الحاء او حرف العين . ويقول بعض الذين عاشروا « الطوارق » ان المرأة اجش صوتاً من الرجل باعتبارها السيد في الاسرة ، وفي السينما والمسرح شواهد لا تحصى على تعدد التأديات الصوتية التي تند عن حاكية واحدة .

ـ يشكو المؤلف من « اننا لا نعرف طريقة الانتقال من الاصل الحقيقي الى المجاز » في كتب اللغة القديمة ، ثم يعرفنا هو كيف تم هذا الانتقال بـ / جريرة / من معناها الحقيقي الى المجازي : « ان الجريرة بمعنى الجناية والذنب آتية من انهم يزورون النساء للفجور بهن ، فإذا خرجوا منهن جروا ذيولهم على آثارهم حتى تنطمس فلا يُعْرَفون » (ص ٤٤) .

اذا تبصرت في هذا المعنى المجازي تجده متلبساً للمعنى الحقيقي : جر الثوب على الاثر ، ولكنك لو تبصرت بأي معنى حقيقي فانك واجد انه يتلبس المعنى المجازي أيضاً . ورسالة اي فعل الى عقل الانسان تجعل له صورة في الذهن مكونة مما وقع عليه الادارك من عناصر يتكون منها (ومن غيرها) ذلك الفعل . اذا رأيت اناساً يشرفون (يرشفون) الماء واللبن ، وفي ذلك استعلاء جسدي واريحية ، فانك لا تدرك فعل / الشرف / محصوراً بعملية آلية خالية من التأثر النفسي لا عند الشارب ولا عند الرائي ، وخصوصاً اذا كان الرائي ممن ندر ان ارتووا ماء ولبناً . بهذا يصبح اهل اليسار شرفاء ويصبح ضيقو اليدين بؤساء .

فالحديث عن انتقال اللفظ من كونه عبارة حقيقية الى كونه عبارة مجازية هو من باب قصر النظر ، ولكن هذا لا يعني نفياً لاختلاف حشو اللفظ بالمعنى من عصر الى عصر باعتبار اختلاف المدركات مع اختلاف الاهتمامات والخبرات . ومهما انتقل يظل ينطوي على معنى مادي محسوس وعلى فحوى تجتاح النفوس ، ان الاحرف U . S . A هي اوليات الالفاظ التي يتركب منها اسم الولايات المتحدة الاميركية ، انها اللفظ الدال دلالة حقيقية على تلك البلاد . ولكن من يستطيع ان يزيل من هذا اللفظ الاحساس بالظلم لدى المتأففين من ال U . S . A ؟ ومن يستطيع ان يمنع استشفاف آخرين لاحساسهم بالضعف او الدونية ازاء مدلول تلك الاحرف ؟ واذا شئت ان تحدد المعنى الحقيقي للفظ تحديداً دقيقاً فانك لا تجد ما ينطوي عليه سوى حقيقة صوته وحقيقة صورته الخطية . وما زاد عن ذلك من دلالة على محسوس او مفهوم او عاطفة فانه يصبح ضمن الدلالة

« المجازية » . وهذه الدلالة الحقيقية جداً لا تخلو هي نفسها من فحوى ، إذ ان رؤيتنا لصورة اللفظ الصيني او الياباني تبعث فينا استغراباً من كثرة مكوناته وتعقد تركيبها في الصورة حتى يصير التعبير عن الخط المتشابك والمرتبك : « مكتوب بالصيني » ، وصوت اللفظ كصورته يوحي ايحاء مستطاباً او مستكرهاً ويتحول الى رمز لاحدهما : « آه » ، « أُفْ » ، « تِرِرَمْ » . . . .

- يقول المؤلف : في بغداد يقال : « (قلت له خمسين مرة لا تعمل هذا العمل) ، وربما بولغ في هذا الاسلوب على ظن لغة هذه الحكاية » (ص ١٩٨ - ١٩٩) .

يقصد الكاتب ان البغداديين ربما لجأوا الى اسلوب الف ليلة وليلة فبالغوا بالعدد كما تبالغ تلك الحكايات في مثل القول : « فحلفت له ألفاً وخمسمائة يمين لا اخونه » .

قد يتوه عن الفكر ان مثل هذه المبالغة تنشأ في الذهن نتيجة ادراك صاحبها للفرق ما بين جهده المبذول وقلة الفائدة منه . في جنوب لبنان نقول : « طِلْعِ الشَّعْرْ عَلْساني أني وإحْكِيْ ، انْ كَنُّو لِحْمارْ فِهِمْ هُوِّي فِهِمْ » . والاحجام والابعاد والاعداد وجميع القياسات تدرك عفوياً بنسبيتها . اذا كان من عادة المرء ان يجد عملاً بقليل من الجهد ، ثم بحث احدهم عن عمل يوماً ويوماً وهنا وهناك فلم يجد، نراه يقول: « بَرْمِت الدِّنْيَا عالفاضي » ، فالبحث الذي بحثه بالنسبة الى بحث آخر مجدٍ هو كالدنيا في نظره بالنسبة الى المجال الذي بحث فيه غيره .

- جاء في الصفحة ١٦٥ - ١٦٦ : « والتوليد في باب (السخف) بين العامة مشهور في كل زمان ، والى هذا ينبغي النظر في قوله (بَرْطَع) » . قبل الحروف « الغليظة » وبعدها تميل الفتحة ، ويميل الأنف نحو العين مما يدعو الى النظر بدقة في القرابة الدلالية والصوتية ما بين / قَطّ / و/ قَطَع / و/ قَطَّعْ / ، وما بين / فَرَطَ / و/ فَرْطَع / و/ بَرْطَع / ، وما بين / مَزَقَ / و/ فَرْقَع / ، وما بين / قصَّ / و/ أزَعْ / (أزع : كسر) . وليس القول « التوليد على (السخف) » ، بقادر على سد الثغرة المكشوفة في البحث عن « التطور اللغوي التاريخي » . كان احدى السكوت او الاعتراف بـ « نَشَاف » القريحة من هذا الايهام ، كما فعل المؤلف حين قال في لفظة تونسية : « ومن اسماء التين / الكرموس / و / الشريحة / ولا نعرف لذلك وجهاً » (ص ٢٢٣) .

يبدو ان لفظ / كرموس / مركب من / كرم / و / US / ، وهذه علامة اعراب لاتينية ، وقد تكون هي الثابتة في اسماء نباتية مثل / ترمس / . اما / الشريحة / فهي التين الذي يقطف ناضجاً ويشقق فينشرح وينشر في الشمس حتى يجف .

وكما ان « الشريحة » ليست فقط تونسية ، فان « نعيماً » ، التي يقول فيها المؤلف : « لا اظن ان غير العراقيين يستخدمون هذه الكلمة » ، ليست مقصورة على العراقيين من دون العرب ، نحن في لبنان نقول « نعيماً » لمن حلق وتحمم وافاق من النوم ، ونقولها تهكماً لمن نهيناهم عن الغطس في مغطس عكر فلم ينتهوا ، فعادوا فاشلين :

« نعيماً ، صحتين عَ أَلْبَكْ » اي انه يستحق ما ذاق لأنه لم ينتصح .

- « فكرة التضاد تكون نتيجة التطور في الاستعمال ونتيجة الجديد في الدلالة » (ص ٩٨) .

نجد في « التورية » والسخرية والتبطين كلاماً يحمل المعنى او ضده احياناً . ونجد بعض العبارات والالفاظ تنطوي على الضدية المطلقة كـ / الفجر / وكاد / أبلق / (اسود خططه الأبيض) والـ / كهل / (بين الشباب والشيخوخة) والـ / مَيِّت / (الذي يموت ولم يمت بعد) ، وكذلك / النزع / و/ الاحتضار / ، ان بعض المدلولات تكون واضحة التضاد في ذاتها ، فيكون رمزها اللفظي دالاً على الضدين في الشيء الواحد ، وبعض الالفاظ المعبرة عن الشيء وضده لا تختلف الا بجروس دقيقة اثناء النطق فلا يستطيع الخط تمييزها فتتحد في الخط صورتا الصوتين بلفظ واحد . ومن الاضداد ما يرجع الى ان الشيء وضده يمكن ان يؤديا صوتين هما في الادراك واحد، مما يؤدي بدوره الى صناعة لفظ واحد من كلا الصوتين ، ويدل به على الضدين اللذين صدر عنهما الصوت الواحد ، اصل اللفظ .

- والروابط بين اجزاء الكتاب المركب من فصول ليست قوية مما اوقع المؤلف في تكرار بعض الافكار والشواهد مراراً عديدة . كما انه قد سها عن ذكر مراجع تستحق الذكر . وهناك اخطاء تعبيرية نادرة كالقول في اللغة : انها « مظهر من مظاهر علم الاجتماع » . يضاف الى ذلك اخطاء مطبعية ظهرت اكثر في الحروف اللاتينية ؛ فقد كتبت لفظة البرجوازية بالحرف اللاتيني على هذه الصورة : « bompeolsie » (ص ٢٣٢) .

وليس هذا وحده ما يعترض فيه على افكار المؤلف في كتابه « التطور اللغوي التاريخي » ، فللقارىء ان يحكم ،